حول رأيه فى

الوحدة الإسلامية

للأستاذ حسين مروة

لنكاد نلمس اليوم فى مظاهر الحركة الاصلاحية القائمة فى ديار الاسلام وأمة القرآن الكريم — اتجاها جديدا يغتبط به كل مسلم يستشعر فى نفسه الايمان الحق ، ومظهرا مباركا يرتاح إليه كل موحد يحمل فى صدره عاطفة الخير الصريح ، وإننا — إلى اغتباطنا بهذا الاتجاه — لنزداد طمأنينة إليه إذ نتلمس بين عوامله وأسبابه عامل النضج الفكرى وفهم الحقائق المستوحاة من ملابسات الحياة وروحية الدين الاسلامى الحنيف . وإننا لنذهب فى طمأنينتنا واغتباطنا هذين مذهباً أبعد مدى ، إذ نشهد بين العاملين على هذا الاتجاه طائفة رجال الدين التى يرى كثير من المشتغلين فى هذا الحقل أنها السبب الأول فى إخفاق الحركات الاصلاحية التى نشأت فى الأعوام المتأخرة لتوحيد كلمة الأمة الإسلامية وجمع رأيها الشتيت ورتق ما فتق التاريخ من مجدها السنى وعزها الرفيع .

وفى الحق أن طائفة رجال الدين هذه كانت فى عصور التاريخ الاسلامى الأولى هى العنصر الصحيح الذى عمل للاسلام أكثر مما عملته العناصر الأخرى ، إذ بينما كانت هذه العناصر تحمل المعاول لهدم صروح الوحدة الاسلامية الشامخة — كان علماء الدين يجلسون إلى القرآن والحديث الشريفين يستوحونهما حقائق الدين ، ويستهدون بنورهما المبين إلى حل المشكلات وتوضيح الغامضات ، يجتمعون على ذلك فيما بينهم وإن باعدت المذاهب بين صفوفهم ، ويتواصلون تواصل الأرحام وإن حاولت أهواء السياسة أن تثير جماعاتهم نثراً وأن تستغل بساطتهم الوريثة استغلالا ، وأن تستثير حفائظهم الدينية لتأييد أغراضها ، فتزاهم — على هذا كله ينصرفون عما حولهم من شؤون إلى دراسة ، أو تدريس ، أو تأليف ، أو مناظرة علمية مهذبة الحواشى طاهرة المقاصد موطأة الأكناف بالسماحة الرحبة والتساهل العذب وأدب البحث النزيه . وإذا كنت ترى فى مخلفات هذه الطائفة فى عصورها تلك من المؤلفات والدراسات ما لا يدل على شىء من هذا الذى نقول — فانما هو النادر الذى لا يصح القياس به ، أو هو مما ألجأت عليه السياسة بأسبابها ونوازعها الأثيمة . وهكذا كانت السياسة تلحف بالتنقص من أطراف الوحدة ، وتلج فى تبديد الشمل ، وتجهد فى تضييع الخلق العلمى السمح ، واستئصال هذه البقية الكريمة من تراث العصر الأول للاسلام — حتى انثال رجال الدين إلى السياسة ، وانهال العلماء على الدنيا ، وكان ما كان من هذه الطرائق المبعثرة ، وهذه الأهواء المتدافعة ، وهذه الدنيا الاسلامية المليئة بالأحداث الجسام والنوازل المروعة الفادحة

وعفا الله عن رجال الدين هؤلاء ومن خلف من بعدهم إلى يوم المسلمين هذا ، فلقد سايروا أهل المطامع ، وكانوا معهم إلبا على الدين من حيث لا يشعرون ، وكانوا لهم عونا على الاثم من حيث هم غافلون ، ونحن لا نشك فى أن أصحاب الرأى القائل بأن علماء الدين قد عرقلوا سير الاصلاح فى الاسلام — على شىء من الحق ، وإن لم يكونوا على الحق جميعه فيما نرى ، لأن تخلف هؤلاء عن قافلة رجال الاصلاح الذين قطعوا شوطاً فى هذا المضمار — ليس هو السبب — كما يرون — فى إخفاق الحركات الاصلاحية التى قامت فى هذه الأمة إلى اليوم ، لأننا لا نعتقد أن سلطة رجال « الاكليروس » الاسلامى تتناول هذا المدى من التأثير فى سير الأمور العامة فى دنيا المسلمين ، ولعلنا لا نزيغ عن الحق إذا قلنا لأصحاب هذا الرأى إن السبب الاول فى فشل المصلحين يرجع إلى عاملين اثنين : أحدهما — كاتبوا التاريخ الاسلامى أنفسهم الذين أمعنوا كثيراً — علم الله — فى تملق السياسة ومجاراة أهواء النفوس من أى حزب كان هؤلاء ومن أى شيعة ولون ، جعلوا تاريخنا مثارا للعزازات وموقظا للنعرات كلما شاء الزمان أى يبدلنا بشرنا خيراً ، وبفرقتنا اجتماعا ، وشر البلية فى هؤلاء أننا مرغمون على قراءتهم فما الحيلة إذن ؟ . ترى هل يعمد القائمون على فكرة الاصلاح إلى ما كتب المؤرخون عن عصور القلق الاسلامى فيقطعون ألسنتهم فيما يتحدثون به إلينا من فضول الاحاديث ؟ .

وأما العامل الثانى فليس فى قراءة « الرسالة » الكريمة — كما نعتقد — من يجهله ، أو ليس هو « الغرب » الغازى . . . المظفر . . . ، ويعلم القراء ما وراء هذا من شجون الحديث وشؤونه الرائعات .

هذان ما نعتقد أنهما السبب الأول فى تمزيق شمل المسلمين . وإذا كان لرجال الدين من أثر بعد هذا ، فذلك هو استسلامهم إلى هذين العاملين استسلاماً ساذجاً أخرق ، ولا نقول عنه إلا ذلك . . .

ونعود الآن لنقول ثانية : إن هذا الاتجاه الحادث فى دقة الحركة الاصلاحية ، يزيد فى اطمئناننا إليه أن بين عوامله وأسبابه فهم أولى الشأن من طوائف المسلمين حقائق الحياة المحدقة بهم وأسرار الروحية الاسلامية السمحاء ، وأن فى صف العاملين عليه طائفة رجال الدين ، ورجال الدين هؤلاء المساهمون فى هذا الاتجاه ليسوا من الازهر الشريف وحده ، وليسوا من النجف المقدس وحده ، ولكن المعهدين الشقيقين كليهما يمدان الفكرة الجليلة المنشودة : « الوحدة الاسلامية » بروح منهما وبسبب من عندهما بليغى الأثر ، كريمى العنصر ، طيبى المنبت ، وها هى دار « الكنانة » العزيزة ، زعيمة هذه الفكرة المثلى وحاملة المشعل المقدس اليوم قد شهدت منذ أيام عالما جليلا من علماء النجف يحاضر فى دار جمعية الشبان المسلمين فى موضوع « الوحدة الاسلامية » بروح من التسامح جليل البادرة ، ويجتمع إلى عظماء البلد الاسلامى الكريم يحادثهما حول هذا الشأن فيلقى فى رجال العرش المؤثل الرفيع كل العطف ، ويشهد فى أوساط الأزهر العظيم

أبلغ المثل على نضج الفكرة ، ويأنس من علية البلد وزعمائه الأبرار ومن حملة العلم والقلم ورجال الفكر فيه - ألمع الدلائل على قرب اليوم السعيد ، إذ يصبح المسلمون إخوانا كانهم البنيان المرصوص تظلهم جميعاً راية التوحيد العليا .

ولكننا - ونحن نعرض لهذا كله - نرى من واجبنا أن نقول كلمة فى مرحلة ثانية للموضوع ، وهى التى أردناها أول ما أردنا أن نكتب فى هذا الباب ، ذلك أن للموضوع مرحلتين : أولاهما - حاجة الأمة الاسلامية إلى الوحدة الشاملة الكبرى ، وهذه قد فرغ الباحثون من التدليل عليها ، ووضعها فى ميزانها الصحيح ، وفرغ كذلك المصلحون من عقد الضمائر على الايمان بها وجعلها مثلا أسمى تستهدفه النفوس ، وتستهون فى سبيله الجهود . والمرحلة الثانية هى : قضية العوامل والاسباب الأقرب أثراً وأعظم فعلا فى تحقيق هذه الأمنية الغالية والمثل الرفيع .

هذه المرحلة الثانية قال الكاتبون والمصلحون فيها ما شاؤا ، ولقد طلع على العالم الاسلامى منذ أعوام بعيدة أو قريبة ، رأى بهذا الشأن عرفه السوريون أكثر من غيرهم ، إذ نشأ - أول ما نشأ - فى ديارهم ، ويقول أصحاب هذا الرأى إن الخلافات المذهبية - ولا سيما بين طائفتى السنة والشيعة - هى مصدر الفرقة ، وهى مصدر البلاء والشقاء ، وإذن فلنعمد إلى قلع هذا الوباء من أصله ، ونجتثه من جذوره ، بأن نجمع المسلمين كافة على مذهب واحد يستخلص من مجموعة هذه المذاهب على ضوء القرآن والحديث ، ولكن هذا الرأى لم يكد يظهر حتى اختفى دون أن يثير وراءه جدلا ولا بحثا ، ودون أن يترك بعده صوتا لنادب عليه أو شامت به ؛ وهاهو ذا اليوم يظهر ثانية على لسان سماحة العلامة الزنجانى - ومن النجف كذلك - ، فاذا هو يلقى هذه المرة فى مصر وفى ديار الشام غير ما لقى أول مرة ، وإذا هو موضوع بحث وعناية من العلماء ورجال الفكر وأولى الشأن الجليل فى القطرين الشقيقين . وبينا نفكر فى إدلاء دلونا بين الآراء فى الموضوع وإذا « الرسالة » الرفيعة تطلع علينا فنستقبلها بالنهمة الروحية التى نستقبلها بها فى كل مرة ، ونقف - أثناء سبرها - على مقال جليل للاستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى الموضوع نفسه وبعنوان : « الوحدة الاسلامية » وللاستاذ حرمة فى النفس حملتنا على أن نجمع الفكر إلى مقاله ، فاذا هو يقول فيه ما كنا نحاول أن نقول فى الموضوع قبل ذلك ، وها نتقدم إلى « الرسالة » الغراء بهذه الكلمة العاجلة تأييداً لرأى الأستاذ الصعيدى الذى تفرد به بين من عرضوا لهذا « المشروع » بشىء من القول :

فى الحق - ياسيدى الأستاذ - أن محاولة توحيد المسلمين عن هذا الطريق الذى يقولون ، لهى - شهد الله - عامل جديد على توسيع شقة الخلف بينهم ، وتهديد هذا الكيان الحاضر - على هزاله - بالاضطراب فالاضمحلال .

ليس هذا أوان التلبيس والأبهام ونحن نبحث أمراً حيويا له خطره وله عواقبه الجليلة وتتائجه المرموقة ، فلنقل - إذن - بصراحة : إن خلاف الطائفتين فى أصول العقائد حقيقى ، وليس هو - كما قالوا - ظاهرى قشرى يستطاع « تصفيته » فى اجتماع أو مؤتمر أو ما يشبه هذا . ولنقل كذلك - بمثل هذه الصراحة - : ان من العسير ، بل من المتعذر ، أن نحمل أية من هذه الطوائف على التزحزح عن مبدأ واحد من مبادئها أو أصل واحد من أصولها - قيد شعرة ، بعد أن أصبحت هذه المبادىء والأصول عقيدة فى العقائد . ولا نظن السادة أصحاب هذا الرأى يجهلون أن العقيدة جزء من كيان المرء لا ينفك عنه ما دام كياناً ينسب إليه ويتميز به ، ونظننا فى غنى عن التبسط بهذه الناحية ، وفى مباحث العلوم النفسية والاجتماعية وفى منطق الواقع نفسه ما يغنى عن التبسط والتدليل

ولنفرض - جدلا - أن اجتمع نخبة من علماء كل طائفة ، وتجرد هؤلاء عن اعتبارات المذهب ، وموحيات العقيدة ، وبحثوا الأمر بحثاً علمياً صريحاً مستهدين بروح الاسلام الأعلى ومبدأ القرآن الأول ، ثم أقروا جملة من المبادىء والأصول قد تكون مزيجاً من مذاهب شتى وقد تميل إلى مذهب دون مذهب - لنفرض هذا كله ، ولنجعله بمكان من الاعتبار الصحيح ، ولكن من يضمن لنا هذه الدهماء أن تتنازل عن عقائدها لقاء ما يقول لها العلماء ، هكذا قضى البحث وقواعد العلم ، وهكذا تشاء مصلحة الاسلام . أو أن تتقبل هذا المذهب « الجديد » بطمأنينة ورضا واقتناع ؟ ومن يضمن لنا كذلك هذا التاريخ الأرعن أن يوقظ النعرات من جديد فنستهدف مشكلة جديدة ونضيف إلى هذه المجموعة « الضخمة » من المذاهب مذهباً جديداً ، أو قل : عاملا جديداً على صدع الصف وخلق الفوضى التى نحاول أن نبيدها من الوجود ؟ .

لا . لقد جاء الأستاذ الصعيدى - حفظه الله - بالحق إذ نحا غير هذا المنحى فى سبيل الاصلاح وجمع الشمل . ولقد نحونا مثل هذا كذلك فى مقالات نشرتها جريدة « الهاتف » النجفية ناشدنا فيها هيئة العلماء العليا فى النجف أن يعتبروا هذه الخلافات فى أصول العقائد بين المذاهب الاسلامية ، كما يعتبرون هذه الخلافات فى الفروع بين مجتهدى المذهب الواحد ، وأن تمد مدرسة النجف يدها إلى شقيقتها الكبرى مدرسة الأزهر ، وأن يتبادل المعهدان الكريمان البعوث العلمية ويوحدا مناهج التعليم فيها وأن يشتركا فى الرأى كلما حدث فى الاسلام حدث من إصلاح أو تثقيف ، أو تأليف ، أو تأسيس الخ .

هذه هى الخطة المثلى التى نرجو أن يعتبرها المصلحون من علماء الطائفتين قاعدة لأعمالهم فى سبيل الوحدة الاسلامية المنشودة . وإننا لنرجو أن يكون لنا فى هذا الاتجاه الاصلاحى الجديد - سبب أى سبب فى تحقيق هذه الأمنية الحبيبة .

وأنا أرجو - فى ختام كلمتى - أن أحقق أمنية تعتلج بالصدر فى أن أشد الرحال فى اليوم القريب إن شاء الله إلى الأزهر العظيم رجاء أن نشق الطريق إلى تواصل الأرحام بين المعهدين الشقيقين ، وتحقيقاً لمقترح الأستاذ الصعيدى الكريم ، والله ولى الأمر ؟

حسين مروه